

ملاح من الحياة الثقافية في المغرب الأوسط (القرن 9هـ/15م)

من خلال فهرسة المرويات ومذكرات الرحلة "غنيمة الوافد

والرحلة لعبد الرحمان الثعالبي أنموذجا"

رامي بلعيد

belaidirami@gmail.com

المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة

حضور عبدالرزاق

abdodidohis@gmail.com

جامعة لونيبي علي البلدة 02

الملخص:

يتناول هذا الموضوع مدى حضور مذكرات وفهارس العلماء في التعريف بالحياة الثقافية بمختلف تجلياتها في المغرب الأوسط، خاصة أن الثعالبي احتل مكانة هامة ضمن العلماء الذين نبغوا في علوم عصره، بفعالياته المشهودة في تسيير مقاليد التوجيه الثقافي والديني في بلده، حتى أصبح مثالا داخل المغرب الأوسط وخارجه، متناولين ملاح من القضايا الثقافية للمغرب الأوسط والمبثوثة في ثنايا مذكراته، معرجين في الأخير على إمكانات وحدود توظيف هذه المصادر في الكتابة تاريخية حول المنطقة .

الكلمات المفتاحية: عبد الرحمان الثعالبي، المغرب الأوسط، الحياة الثقافية، المذكرات.

Abstract

This topic deals with the extent of the presence of memoranda and indexes of scientists in the definition of cultural life in various manifestations in the Middle Morocco, especially that Thaalbi occupies an important position among the scientists who have been devoted in the science of his time, his activities are known in the conduct of cultural and religious guidance in his country, , Reaching out to the cultural issues of the Middle East and disseminated in the

annals of his memoirs, finally citing the potential and limitations of employing these sources in historical writing about the region.

Keywords: Abderrahmane Thaalbi, Middle Morocco, Cultural Life, Memoirs.

مقدمة:

لم يكن العلماء بمنأى عن فعاليات المجتمع الذي عاشوا فيه؛ تبعاً لمسؤولياتهم الشرعية، سيما على اعتبارهم من أقطاب الأمة، لذا فقد عملوا على النهوض بالجانب الثقافي، راصدين ذلك في سيرهم الذاتية التي غدت منهلاً للتلاميذ والطلبة، يأخذون منها ويخطون على منوالها.

هذا وقد كان القرن التاسع الهجري شاهداً على جهود نخبة من العلماء الذين ضربوا بسهم وافر في ميدان العلوم بصفة عامة والدينية على وجه الخصوص، وحسبنا في ذلك تلك التأليف الجملة وثناء التلاميذ والأقران من العلماء مشرقاً ومغرباً.

والمطلع على المصنفات التاريخية، إضافة إلى كتب التراجم والسير الذاتية؛ ليقف على منبهاً أمام حجم إسهام أولئك الرجال في النهوض بالجانب الثقافي في المنطقة من هلال الجهد المبذول في تدليل العوائق وخدمة المجتمع إرضاء لله تعالى، ويأتي في مقدمة العلماء المشهورين في المنطقة خلال هذا القرن الشيخ عبد الرحمان الثعالبي.

وقد جرى العرف لدى قطاع ممتد من العلماء، وعبد الرحمان الثعالبي جزء من هذه الفعاليات؛ أن يؤلفوا كتباً يدرجون فيها جانباً من سيرتهم الذاتية، تعنى بمسيرتهم ورحلاتهم العلمية، يعرجون فيها إلى تعدد شيوخهم ومروياتهم وطرقهم في الرواية، وهي والحالة هذه صورة حية للحياة الثقافية عصر المؤلف من طرق التدريس ومناهج التعليم ورجالات العلم وأنشطة التأليف.

مشكلة الدراسة:

لم تحل الجزائر في مرحلة من مراحل تاريخها الإسلامي من العلماء المجتهدين الذين أصلوا مرجعيتها الدينية، محاولين في نفس الوقت النهوض بالجانب الثقافي للبلاد، مخلفين

في ذلك سيرة ذاتية تنير درب الخلف وتعتبر رافدا أساسيا تفهم وتتبع التاريخ الثقافي للمنطقة في القرن التاسع للهجري.

إن البحث في الموضوع يتيح الفرصة لطرح الإشكالية التالية: الى أي مدى حضرت مذكرات وفهارس عبد الرحمان الثعالبي في رصد وتعريف الحياة الثقافية بمختلف تجلياتها في المغرب الأوسط؟ وما هي أهم القضايا الثقافية المثبوتة في ثنايا مذكراته؟ أمكن أن يسهم هذا النوع من المصادر في إمطة اللثام عن بعض قضايا التاريخ الثقافي للمنطقة؟ .

أهمية الدراسة:

تنبع أهمية الموضوع من أهمية تاريخ الأمة الجزائرية في حد ذاتها ماضيا وحاضرا ومستقبلا، لارتباطها بطبيعة التاريخ وماضي الإنسان من جهة ودورها المهم والمؤثر في كيان المجتمع من جهة أخرى، فلكل أمة أعلام أفذاذ صنعوا تاريخها وأصبحوا قدوة لأبنائها، وتتطلع من خلالها على مستقبلها وتسترشد بهم في حياتها العامة والخاصة، انطلاقا مما خلفوه من مذكرات تشكل المسار الأساسي عند جميع أفرادها، كما تستمد هذه الورقة أهميتها من أهمية حضور صورة العالم ماضيا وحاضرا في المخيال الجمعي للشعب واعتباره من أهم أعلام الوطن والذي ساهم إثراء التراث الثقافي للأمة الجزائرية.

أهداف الدراسة:

يروم البحث إلى الإبانة عن فن السيرة الذاتية عند الثعالبي ومحاولة إبرازها في صورة متكاملة تبين مدى اتسامه بالأصالة والابتكار والواقعية، في ظل عصر انتشر فيه أشباه العلماء، والذين ساهموا في زيادة شرح الحياة الثقافية لمجتمعهم، كما هدفت الورقة في جانب آخر الى محاولة المساهمة في إثراء المكتبة بدراسات خاصة ترنو مقارنة الواقع الثقافي للمغرب الأوسط بأسلوب مركز ومنهجي انطلاقا من سير أحد علمائها، ولعل أهم الأهداف إمطة اللثام عن علم من أعلام الجزائر و فقهاؤها ودوره في بناء الجانب الثقافي للأمة الجزائرية، ربطا للحاضر بالماضي المتألق.

أولاً- عصر الثعالبي وحياته:

الإنسان ابن بيئته وتناح عصره مهما تفرد؛ فالبذرة الصالحة لا تنمو إلا وسط صالح، منه تعيش وتتغذى، لهذا كان للعصر الذي يعيش فيه المرء عظيم الأثر على طبعه بخصال معينة.

1-عصر الثعالبي:

1-1- الحياة السياسية في عصر الثعالبي:

لقد كان لسقوط الدولة المؤمنية في القرن السابع للهجرة مرحلة بدأ الانحطاط واشتداد الصراع على السلطة، وسيادة الفوضى، وبهذا سادت فيه الفتن والحروب بين القبائل والولاة.

توج هذا الصراع بظهور ثلاث دول مستقلة نتيجة لضعف مملكة الموحيدين جزأت المغرب؛ تسعى كل واحدة منها للتوسع على الأخرى، فاستقل الحفصيون في تونس، واستقل بنو عبد الواد تحت قيادة يغمراسن مؤسس هذه الدولة بتلمسان وضواحيها، واستولى بنو مرين على فاس⁽¹⁾.

ولما كانت الجزائر تتوسط هاتين الدولتين فان الضغط عليها كان شديدا من الطرفين، فانعكس ذلك على أهلها؛ فكثرت الفتن، وقل الأمن، وضعف سلطان الدين في النفوس، مما أحال على كثرة أدياء التصوف.

أما مدينة الثعالبي (الجزائر العاصمة)؛ فقد كتب فيها لعائلته وقبيلته الثعالبية⁽²⁾ أن تواجه كلا من المرينيين والزيايين من الغرب، والحفصيين من الشرق، مما أدى الى تقلص نفوذها؛ مستقرة بمتيجة أواخر القرن السابع الهجري، وأجبرت على دفع الإتاوات للمرينيين والحفصيين أيام استيلاء كل منهما على العاصمة، وقد أزال أبو حمو موسى الثاني الزياني سنة 780هـ سلطاتهم السياسي على العاصمة⁽³⁾، وعلى الرغم من ذلك فإن نفوذهم الروحي لم يزل مؤثرا وفاعلا، وفي خضم هذه الظروف عاش الثعالبي.

1-2- الحياة الاجتماعية في عصر الثعالبي:

لا يخفى على احد ما للحالة الاجتماعية من ارتباط وثيق بالوضع السياسي، فالمنطقة وان نعمت في بعض الفترات بالهدوء والاستقرار والأمن؛ فإنها شهدت وفي كثير من الأحيان ظروفًا مضطربة وحروبًا مدمرة أدت الى وقوع مجاعات؛ وانتشار لمؤشرات الجهل لعدم إيلاء الدولة لها بالاً.

فلقد عاش الثعالبي في عصر يموج بالفتن وكل مظاهر التخلف الحضاري بسبب الحروب القبلية الدائرة بين المغرب العربي وخاصة بين الحكام والولاة، هذا ما دفع بالمواطن المغربي للهروب إلى أشياء أخرى كالتصوف وأهل التصوف⁽⁴⁾، هارين في ذلك من الواقع الاجتماعي المتدهور.

هذه الظروف وغيرها أدت الى تفكك المجتمع وأصبح يموج في بحر من الخرافات⁽⁵⁾، فلم يكن أفراد المجتمع عصرئذ يتمتعون بنفس القدر من الحياة الكريمة والرفاهية، فأكثر فئات المجتمع فقيرة وفي ضيق العيش وغبن المعيشة، فكثرتم بالموازاة مع ذلك المجاعات وفسدت الأخلاق، فأنحاز الناس الى الهروب من الواقع الاجتماعي المتردي، منقطعين للعبادة، فظهر لذلك كثير من ادعاء التصوف⁽⁶⁾ وصار كل مستغل للعامة باسم الدين ومتقرب للسلطان باسم الطريقة يعد قطباً، تأتيه الجيايات والهدايا وحتى الرشى، وإلى التصديق بالكرامات والمعجزات، وتقديس الأولياء، وهو ما سيكون له أثره البالغ على الحياة الثقافية .

2- حياة الثعالبي وإنتاجه الفكري:

1-2- أصله ونسبه:

هو أبو زيد عبد الرحمان، بن محمد، بن مخلوف⁽⁷⁾، بن طلحة، ابن عامر ابن نوفل بن عامر، بن موصور بن محمد، بن سباع، بن مكّي ابن ثعلبة بن موسى، بن سعيد بن مفضل، بن عبد البر، ابن فيسي، ابن هلال، ابن عامر، بن حسان، بن محمد بن

جعفر، بن أبي طالب⁽⁸⁾ فهو جعفري النسب، إذ ينتهي نسبه الى سيدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.

2-2- مولده ونشأته:

ولد الثعالبي في سنة 785هـ/1384 م بواد يسر⁽⁹⁾، على بعد 86 كلم بالجنوب الشرقي من عاصمة الجزائر، وشب هناك بين أحضان أبويه نشأة علم وصلاح وأخلاق مرضية، في أسرة عريقة في الجحد والشرف والنسب⁽¹⁰⁾؛ حكمت متبعة وغيرها من الأماكن مما يجعله يجمع بين شرف العرق والعلم والحكم، وقد تلقى مبادئ قراءته وتعلمه بالجزائر العاصمة وضواحيها، وقد كان حاضرا يوم غزى الأسبان تدلس في دولة بني عبد الواد ، وإخوتهم من بني مرين، وكان عمره 15 سنة.

2-4- نتاجه الفكري:

ترك الثعالبي إنتاجا علميا هائلا يفوق تسعين مؤلفا في مختلف العلوم العقلية والنقلية منها "الجواهر الحسان في تفسير القرآن" و"الذهب الإبريز في غرائب القرآن العزيز" و"كتاب الأبرار في معجزات النبي المختار" و" الأنوار المضيئة الجامع بين الحقيقة والشرعية" و" العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة" و" الدرر الفائقة في المشتل على أنواع الخيرات في الأذكار والدعوات" و" قطب العارفين ومقامات الأبرار والأصدقاء" و"حقائق في التصوف"⁽¹¹⁾ وغيرها كثير، امتازت كلها بالأصالة والتعمق والشمول، وتدل في الوقت نفسه على تبحره فيها وسعة اطلاعه، لهذا لاقت قبولا حسنا لدى الأئمة ورواجا بين الطلبة في حياته وبعد مماته داخل البلاد وخارجها.

ثانيا- ملاحم من الحياة الثقافية من خلال فهرسة المرويات⁽¹²⁾ ومذكرات الرحلة عند الشيخ الثعالبي:

1- الرحلة في طلب العلم:

بلغ اهتمام العلماء بالمغرب الاسلامي بالرحلة في طلب العلوم الدينية وتجسم الصعاب لأجلها شأنًا عظيمًا، بغية تحصيله من أفواه الرجال، وحرصا على الاحتكاك بجهاذ الأساتذة، إضافة الى طلب الأسانيد العالية⁽¹³⁾، ولذلك كان الطلبة لا يكتفون بما يتلقونه من العلوم في مدتهم، فيجوبون مختلف البلدان وأهم المراكز الحضارية للقاء العلماء والأخذ عليهم رغم مشقة السفر وصعوبة الرحلة.

هذا وقد بدأ الثعالبي دراسته في سن مبكرة؛ على عادة ذلك الوقت⁽¹⁴⁾، ثم نزع الثعالبي من مسقط رأسه صحبة والده محمد بن مخلوف طالبا المزيد من العلوم؛ على سيرة عصره، حيث كان الطلبة لا يكتفون بما يتلقونه من العلوم في مدتهم⁽¹⁵⁾، فيجوبون مختلف البلدان وأهم المراكز الحضارية للقاء العلماء والأخذ عليهم رغم مشقة السفر وصعوبة الرحلة، فكان طلبة المغرب الأوسط يتنقلون بين أرجاء العالم الاسلامي ليدرسوا بحواضره الثقافية، معولا في الوقت ذاته على المذهب المالكي⁽¹⁶⁾ الذي كان منتشرا في ربوع المغرب الإسلامي، منطلقا من الجزائر الى تونس ومصر وتركيا والعراق وبلاد الشام ثم للحجاز، لأن أهم دوافع الرحلة طلب العلم، بالإضافة الى حب العلم والاستطلاع⁽¹⁷⁾، قاصدا في البداية النهل من علماء يبلده والاحتكاك بهم⁽¹⁸⁾ وكانت قبلته شطر بجاية فدخلها صحبة والده سنة 802هـ/1392م فمكث بها زهاء سبع سنوات يأخذ ويدرس عليهم مختلف العلوم⁽¹⁹⁾، على اعتبارها أهم الحواضر الثقافية يومئذ، وفي سنة 809هـ/1406م ارتحل إلى تونس حيث مكث حوالي ثماني سنوات، انتفع خلالها بمعظم علمائها وأجازوه⁽²⁰⁾، لذا فقد أكد على الرحلة في طلب العلم كشرط أساسي في التعلم، نظرا لما يكتسبه الطالب من خلال التقائه بالمشايخ على اختلاف طرقهم ومناهجهم التعليمية، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون التحصيل العلمي أفضل وأرسخ، كما تفيد الرحلة في طلب العلم على تمييز الاصطلاحات المختلفة وفهمها.

ثم قصد المشرق ففي سنة 817هـ/1414م توجه إلى مصر فأفاد واستفاد وأجازه بعض علمائها، ومن مصر يجم شطر تركيا ونزل بورصة حيث استقبل استقبالا كريما⁽²¹⁾، وقد أقيمت له زاوية هناك، ومن هناك توجه صوب الحجاز مارا بالعراق وفلسطين وغيرها، حيث أدى فريضة الحج واغتتم الفرصة فأخذ عن بعض علماء الحجاز، ثم عاد إلى مصر ثم تونس⁽²²⁾، وهذا الجهد في الرحلات يعكس العقلية المتقدمة لمفكري المغرب الإسلامي في تحقيق التراكم المعرفي الإنساني مستفيدا من تنوع العلماء والمناهج التربوية، مما أثرى شخصيته العلمية وجعله متبحرا في الكثير من العلوم العقلية والنقلية.

التلاقح الثقافي في المجال الإسلامي:

لاشك أن للوحدة المذهبية في بلاد المغرب الاسلامي دور هام في تمتين العلاقات الثقافية بين الدول المشكلة لهذا الفضاء⁽²³⁾، سيما أن المذهب المالكي في القطاع الغربي من العالم الاسلامي يتماشى مع عقليتهم وطبيعتهم، بالإضافة إلى كونه مذهب حركي دينامي أكثر مما هو نظري، ليس فيه تعقيد يربك المجتمع المغربي، خاصة إذا أخذ في الحسبان غلبة نمط البداوة الغالب على أهل المنطقة والذي يتقاطع مع أهل الحجاز⁽²⁴⁾ لقد كانت بين علماء المغرب الأوسط في فترة الدراسة وأقرانهم من المشرق علاقات طيبة، مبنية على التبادل العلمي من خلال تبادل المصنفات، وانتقالها داخل المجال المغاربي وخارجه، وفي حديث الثعالبي عن انتشار كتابه في التفسير ما يؤكد ذلك إذ صرح أنه "إنما كان جمعي له بعد أن خرجت من يدي النسخ وسارت بها الركبان"⁽²⁵⁾

وما يزيد من تأكيد فوائد التلاقح الثقافي مع الشرق، أنه عند رجوعه إلى تونس من رحلته المشرقية سنة 819هـ" كان بعض فضلاء المغاربة هناك يقول لي: لما قدمت علينا من الشرق رأيناك آية للسائلين في علم الحديث وذلك فضل من الله ومنه منه

سبحانه" (26)، ولا شك أن المخيال الفقهي لهؤلاء مرتبط بالشرق رمز الثقافة والتحصيل العلمي الرزين.

بل لقد إذا العالم الثعالبي بتونس حجة ومرجعا، إذا تكلم أنصتوا وإذا قال استمعوا، اعترافا بأفضليته وعلمه وفي ذلك يقول الثعالبي " ولم يكن بتونس من أعلمه يفوقني في علم الحديث منه من الله فضلا، وإذا تكلمت أنصتوا ، وتلقوا ما أرويه بقبول فضلا من الله سبحانه" (27)، وهذا ما نلفيه في تراجم الرجال والأعلام، ونصوص الإجازات التي هي شهادات من الشيوخ والأقران والتلاميذ بالمشرق والمغرب اشهد له بالكفاءة في الحديث والامتياز في العلوم، ورسوخ قدمه في هذا الحقل.

ولا غرو أن الإجازات شكلت أهم الروافد التي ضمنت حركية وتلاقحا ثقافيا للمغرب الأوسط مع المشرق والمغرب، حيث سعى طلبة المغرب الأوسط الى الارتحال للاستزادة من علوم العصر وطلب الإجازة منهم، لذا فقد كان الطلبة يتنقلون طلبا للإجازة، وهي شهادة كفاءة وتأهيل تخول لصاحبها لقب الشيخ أو الأستاذ في العلوم المجاز فيها (28)، ولا تعطى الإجازة إلا بعد القراءة على الشيخ المجيز، وملازمته أياما وشهورا، وحتى أعواما (29)، وقد حرص الطلبة الى جانب تحصيل أكبر عدد من الإجازات وفي شتى العلوم (30)، فمن مرويات الشيخ الثعالبي تصانيف الشيخ أبي الحسن علي بن أبي بكر الهيثمي المصري، والتي يقول عنها " حدثني بها إجازة شيخنا أبو عبد الله محمد بن مرزوق عن المؤلف رحمه الله" (31).

إضافة الى أخذه إجازات من علماء المغرب الاسلامي كابن مرزوق الجد في كتاب نظم السيرة لابن الشهيد (32)، ولا شك أن استدعاءات الطلبة وإجابات الأساتذة نموذج فريد للتواصل العلمي والثقافي بين الطالب والشيخ ونموذج فريد للحركية الثقافية في المنطقة (33) ليلعب في مرحلة متقدمة طلبات استدعاء بالاستجارة من طلبته في مختلف المناطق (34).

الارتكاز على العلوم الدينية تعليماً تأليفاً ومنهجاً:

من بين المجالات العلمية التي تطرق إليها الثعالبي في ثنايا مصنفه طريقة التعليم التي كانت سائدة عصرئذ، إذ كان المنهج التعليمي متدرجاً يعتمد في مراحله الأولى على تحفيظ القرآن الكريم ومبادئ العلوم الدينية الذي غالباً ما يتم في كتاب القرية⁽³⁵⁾، لينتقل إلى العلوم الأخرى بعد النضج العمري والعلمي للطالب من خلال الاحتكاك بالأساتذة والمشايخ عن طريق التلقين والسماع⁽³⁶⁾.

إن المتتبع لتاريخ العلوم والفنون في المغرب الإسلامي عبر العصور ليقف على العناية الفائقة والخدمة الكبيرة التي أوليت للعلوم الدينية، التي زاجت بين العلوم الدينية، منها اشتغاله بكتب الحديث كصحيح البخاري ومسلم وموطأ مالك وكتب السنن دراسة ورواية وتعليقاً وشرحاً، وعلوم الحديث تدريساً وتلقيناً وتصنيفاً، فأثروا المكتبات الإسلامية بمؤلفاته.

هذا وقد ارتبطت شهرته بالتفسير الذي أقر في البداية بأنه " أعمها نفعاً وأعظمها بركة كتابنا المسمى ب: الجواهر الحسان في تفسير القرآن"⁽³⁷⁾، ولعل لمحة بسيطة تعطي انطباعاً حول مدى إيلاء الثعالبي لهذا الجانب من أهمية في تصنيفه للكتب⁽³⁸⁾، يقينا بأهمية هذه العلوم في الدين والدنيا، وطلباً للأجر والثواب.

ولعل من نافلة القول في ذلك العصر حضور التصوف في فعاليات المجتمع المختلفة بما فيها الثقافية، سيما التصنيف والكتابة، ليفسح المجال للعلماء المتصوفين في الإدلاء بدوهم في هذا الميدان حتى أصبحهم بركات وبشارات الأولياء المتصوفة تدون ليهتدي بها طلاب العلم، وحسبنا في ذلك أن الثعالبي قد رأى ببركة كتاب الجواهر الحسان " عجائب وبركات وبشارات متواليات... حتى عزم علي بعض أولياء الله تعالى وحضني على جمعها اقتداء بابن أبي جمة - رحمه الله تعالى - فجردتها بعون الله وأمرت أصحابي بإلحاقها بآخر التفسير ، تنشيطاً لطلبة العلم وتقوية ليقينهم ، وليزداد الناظرون فيها إيماناً مع إيمانهم"⁽³⁹⁾

لينعكس ذلك في ذبوع مصنفاه، حتى أن الطلبة يعظمونه ويجلونه غاية الإجلال ويتزاحمون على دروسه وكتبه، فقد وصف أحد تلامذته فقال: "ورما يكون أثناء بعض تصانيفه والناس من يده ويتبعونه بالنسخ حتى ربما أدركه النساخ قبل أن يستكمل الكراس فينتظرونه"⁽⁴⁰⁾.

فمن القرون التي شهدت عناية فائقة بالعلوم النقلية عموما والسنة النبوية خصوصا؛ فالقرن التاسع الهجري رغم الأحداث السياسية المضطربة بالمغرب الاسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة، فان جذوة العلم لم تحب، والحركة الثقافية لم تنطفئ، وخدمة السنة النبوية لم تنقطع، فحمل لواء العلم نجباء من بيوتات عريقة مشهورة بالعلم والصلاح، فكان لذلك إنتاج القرن التاسع للهجرة" من أوفر إنتاج الجزائر الثقافي، ومن أخصب عهودها، بأسماء العلماء والمؤلفات"⁽⁴¹⁾.

وجريا على عادة علماء ذلك العصر واتكاء على المرجعية الدينية للمغرب الأوسط التي تعتمد على الفقه المالكي في المقام الأول، ولاشك أن للوحدة المذهبية في بلاد المغرب الاسلامي دور هام في تمتين العلاقات الثقافية بين الدول المشكلة لهذا الفضاء، والذي يعلل بتميز الرصيد الفقهي لهذا المذهب وتنوعه ومرونته وتفاعله مع قضايا العصر، ماساهم في تجذير وتكريس هذه المرجعية الدينية في المغرب الأوسط والقرية الى الشخصية الجزائرية، حتى أن الونشريسي صاحب المعيار جاء فيه قوله: "فرحم الله مالكا، ما كان أتبعه للسنة، وأكرهه لمخالفة السلف"⁽⁴²⁾، وهو ما منح وزاد المذهب قوة وصلابة وتكيفاً مع ضرورات العصر، خاصة أن أصول مذهب مالك يتزواج فيها النقل والعقل والنص والاجتهاد وان عنصر السعة والمرونة والتجديد حاضر فيها بشكل قوي، بشكل يستوعب كل التطورات التي تقع في حياة الناس ووقائعها وحوادثها"⁽⁴³⁾.

فقد اهتم الشيخ الثعالبي اهتماما خاصا بكاب الصحاح سيما صحيح البخاري، "الذي عمت بركته في الآفاق وثبتت عند علماء الأمة صحته باتفاق"⁽⁴⁴⁾، ويبدو ذلك

جليا من استكثاره للشيوخ والتنويع في طرق الصحيح، فقد لقي في مصر شيوخا تلقى عليهم صحيح البخاري سمعا منهم الشيخ أبو عبد الله محمد البلالي سنة 820هـ، كما أخذ سمعا صحيح البخاري من شيخه البرزلي بتونس⁽⁴⁵⁾ مفتخرا في الوقت ذاته بعوالي سنده لصحيح البخاري⁽⁴⁶⁾، ناهيك عن صحيح مسلم، إذ لازم الشيخ عبد الرحمان الثعالبي الشيخ محمد بن خليفة الأبى صاحب شرح صحيح مسلم المعروف بإكمال إكمال المعلم واخذ عنه أكثر شرحه⁽⁴⁷⁾، لينهض دليلا على طريقة تعليمية متواترة ومعهودة في المغرب الاسلامي والمشرق تتكأ على السماع عن شيخ والأخذ عليه بالدرجة الأولى.

كما تعدى الاعتناء بالصحيحين الى الموطأ الذي حظي لدى الشيخ الثعالبي والمغاربي عموما، لتتلور مظاهر هذا الاهتمام حملا ورواية وأداء وشرحا ، والشيخ الثعالبي يروي الموطأ من عدة طرق منها طريق سنده العالي الذي يفتخر به في قوله " وأما موطأ مالك فأرويه من طرق ، ولا اعلم الآن على بسيط الأرض أعلى مني سنداً فيه "⁽⁴⁸⁾، إضافة الى سنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة⁽⁴⁹⁾.

وفي سنة 819 هـ / 1414م عاد أدراجه إلى بلده بعدما غاب عنه حوالي عشرين سنة، واستقر به المقام بمدينة الجزائر، حيث راح يشتغل بعبادة ربه، وبث العلوم الشريفة بين أبناء ملته خصوصا في الجامع العتيق (الكبير)، مزاولا التعليم به إلى أن ناداه أجله المحتوم صبيحة يوم الجمعة 23 من شهر رمضان المعظم سنة 875 هـ / 15 مارس لسنة 1479م⁽⁵⁰⁾ بعد أن قضى تسعين ربيعا، كانت كلها طاعة ومرضاة لله عز وجل ووقفا على مصالح العباد.

خاتمة:

لا يسعنا في ختام هذه الورقة التي تطلعنا من خلالها مدى حضور مذكرات وفهارس العلماء في التعريف بالحياة الثقافية بمختلف تجلياتها في المغرب الأوسط ، إلا أن نخلص إلى تسجيل ما يلي:

— رغم العلاقات السياسية المتزعزعة بين دول المغرب الاسلامي فيما بينها، وبين المشرق الاسلامي في جانب آخر، ناهيك عن حالة التشتت السياسي السائدة والجو السياسي المشحون لم يمنع من وجود حدوث مد وجزر بين أطراف العالم الاسلامي من خلال رحلات الرحالة العلمية.

— تأثر الثعالبي بالواقع الذي عاش فيه، فقد كان مدة حياته ملتزما بالفعاليات الثقافية في عصره، مؤثرا فيها بالايجاب، بعد رحلاته المختلفة وتلمذه وتأثره بعلماء أفذاذ، والتي اكسبته منهجا قائما على الكتاب والسنة.

— لم يكن الثعالبي ذلك العالم المنطوي المنعزل عن الواقع الاجتماعي والثقافي لعصره وبلده، بل كان فعلا خدم المجتمع علميا، محاولا بث روح الطموح فيه .

— شكلت الوحدة المذهبية في بلاد المغرب الاسلامي دور هام في تمتين العلاقات الثقافية بين الدول المشكلة لهذا الفضاء، سيما أن المذهب المالكي في القطاع الغربي من العالم الاسلامي.

— تعتبر الإجازات أهم الروافد التي ضمنت حركية وتلاقحا ثقافيا للمغرب الأوسط مع المشرق والمغرب، حيث سعى طلبة المغرب الأوسط الى الارتحال للاستزادة من علوم العصر وطلب الإجازة منهم، لذا فقد كان الطلبة ينتقلون طلبا للإجازة التي تخول لصاحبها لقب الشيخ أو الأستاذ في العلوم المجاز فيه.

— تمحور الحياة العقلية في عصر الثعالبي على العلوم الدينية تعليما تأليفا ومنهجيا سواء الصحاح أو السنن .

- ¹ عطا الله دهينة وآخرون، الجزائر في التاريخ (العهد الإسلامي)، ج3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 359-361. عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، دار الثقافة، بيروت، 1983، ص 42.
- ² هم أعراب من المعتقل بن ربيعة من بني الحارث ، كان نزولهم الجزائر في أوساط القرن الخامس الهجري ، فبسطوا نفوذهم على المنطقة، أكرموا ابن تومرت حين قفوله من المشرق ، فلما ظهروا بسطوا لهم الولاء وقدروهم. ابن خلدون، العبر، ج5، تح خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، 2000، ص 84. عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج2، ص 12.
- ³ مبارك بن محمد المليي، تاريخ الجزائر في القدم والحديث، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص 362.
- ⁴ عبد الرزاق قسوم، عبد الرحمان الثعالبي والتصوف، عالم الأفكار، الجزائر، 2006، ص 21.
- ⁵ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، 1998، ص 40.
- ⁶ عطا الله دهينة وآخرون، المرجع السابق، ص 489-490.
- ⁷ أبي زيد عبدالرحمان بن مخلوف الثعالبي، رحلة عبد الرحمان الثعالبي، منشورة في آخر كتاب غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد، تح محمد شايب الشريف، دار بان حزم، بيروت، 2005، ص 111.
- ⁸ COLIN. Gabriel, Corpus des inscription arabes et turques de l'Algérie, paris, 1901, P9.
- ⁹ أبي زيد عبدالرحمان بن مخلوف الثعالبي، كتاب غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد، تح محمد شايب الشريف، دار ابن حزم، بيروت، 2005، ص 29. أحمد بابا التنبكي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس، 1989، ص 260. محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر الحميمة، تح محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 334. عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج2، ص 272.
- ¹⁰ أبي زيد عبدالرحمان بن مخلوف الثعالبي، رحلة عبد الرحمان الثعالبي، ص 107.
- ¹¹ أبي زيد عبدالرحمان بن مخلوف الثعالبي، كتاب غنيمة الوافد، ص 26-29. أحمد بابا التنبكي، نفسه، ص 259-260. محمد بن ميمون الجزائري، المصدر السابق، ص 341. عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص 274-275.
- ¹² سبب تأليفه لهذا الكتاب كما صرح بذلك الثعالبي " تكرر سؤال السائلين عني الإجازة في ما أحمله من الروايات، وتعيين تلك المرويات، وكانت مروياتي كثيرة وطرق أسانيدها كثيرة، وكان يشق على تتبع جميعها لكل إنسان، اخترت من ذلك المهم مجردا من الأسانيد ، ومن أرادها بأسانيدها وجدها في فهرسي التي عليها خطوط مشايخي ". الثعالبي، كتاب غنيمة الوافد، ص 25-26.

- القليصادي، تمهيد الطالب ومنتهى الراغب في أعالي المنازل المعروفة برحلة القليصادي، تح محمد أبو الأجنال، الشركة¹³ التونسية للنشر والتوزيع، تونس، 1978، ص59.
- ¹⁴ محمود بوعياض، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن التاسع الهجري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص56.
- ¹⁵ أبي زيد عبدالرحمان بن مخلوف الثعالبي، رحلة، ص107.
- ¹⁶ المذهب المالكي نسبة إلى الإمام مالك بن أنس (93-179هـ) وهو ثاني المذاهب الأربعة في القدم، نشأ المذهب بالمدينة ثم انتقل إلى الحجاز، وفي المغرب لما تولى المعز بن باديس سنة 407هـ حمل أهلها على المذهب المالكي، أنظر: أحمد تيمور باشا: المذاهب الفقهية الأربعة الحنفية، المالكية، الشافعية، الحنبلي وانتشارها عند جمهور المسلمين، الأوقاف العربية، القاهرة 2001، ص 67.
- ¹⁷ القليصادي، المصدر السابق، ص59.
- ¹⁸ أبي زيد عبدالرحمان بن مخلوف الثعالبي، رحلة، ص107.
- ¹⁹ نفسه، ص107.
- ²⁰ نفسه، ص109.
- ²¹ نفسه، ص100-111. عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج2، ص272.
- ²² أبي زيد عبدالرحمان بن مخلوف الثعالبي، المصدر السابق، ص110.
- ²³ محمود بوعياض، المرجع السابق، ص55.
- ²⁴ ابن خلدون، المقدمة، ص498.
- ²⁵ أبي زيد عبدالرحمان بن مخلوف الثعالبي، غنيمة، ص26.
- ²⁶ أبي زيد عبدالرحمان بن مخلوف الثعالبي، رحلة، ص110-111.
- ²⁷ نفسه، ص111.
- ²⁸ شاوش محمد بن رمضان، باقة السوسان في التعريف بماضرة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص405.
- ²⁹ أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج2، ص42.
- ³⁰ ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، نشره عبد الرحمان طالب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص308.
- ³¹ أبي زيد عبدالرحمان بن مخلوف الثعالبي، غنيمة، ص44.
- ³² نفسه، ص69، 75.
- ³³ انظر نماذج من ذلك: أبي زيد عبدالرحمان بن مخلوف الثعالبي، رحلة، ص111-112.

- ³⁴ انظر نماذج من ذلك وما تخللتها من عبارات التقدير والثناء لشخص الشيخ . نفسه، ص 79 وما بعدها.
- ³⁵ نفسه، ص 107.
- ³⁶ نفسه، ص 108.
- ³⁷ نفسه، ص 26.
- ³⁸ أبي زيد عبدالرحمان بن مخلوف الثعالبي، غنيمة ، ص 27-29.
- ³⁹ نفسه، ص 26.
- ⁴⁰ عبدالرحمان الجليلاني، المرجع السابق، ص 275.
- ⁴¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1/34.
- ⁴² أبو العباس الونشريسي ، المعيارالمغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب، ج 1، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ص 285.
- ⁴³ محمد الروكي، المغرب مالكي لماذا؟، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 2003، ص 43.
- ⁴⁴ أبي زيد عبدالرحمان بن مخلوف الثعالبي، غنيمة، ص 31.
- ⁴⁵ نفسه، رحلة، ص 110.
- ⁴⁶ نفسه، غنيمة، ص 33.
- ⁴⁷ نفسه، ص 35-36.
- ⁴⁸ نفسه، ص 38.
- ⁴⁹ نفسه، ص 40-42.
- ⁵⁰ محمد بن ميمون الجزائري، المصدر السابق، ص 344. أحمد بابا التنبكي، المصدر السابق، 259. عبد الرحمان الجليلاني، المرجع السابق، ج 2، ص 275.